مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
مجلد: 10عدد: 01 السنة 2018 رقم العدد التسلسلي 15

علم الكتابة وسؤال الاخـ(ت)لاف : نحو مشروع مختلف في التفكير

The Science of Writing and Question difference: Towards a new project/ Different in thinking

الأستاذة: أسماء ياحي
المركز الجامعي عبد الحفيظ بالوصوف–ميلة–
profasma@yahoo.fr

تاريخ الوصول 2018/02/09 – تاريخ المراجعة 2018/04/02

ملخص البحث

إن لحظة ميلاد مشروع الفكر الغربي المعاصر لم تولد متسارعة بل كانت حصيلة لحظات مترسبة في الوعي النقدي، شاخصة في نتاجه، يمارس فيها العقل الميتافيزيقي صلاحياته،لا بما هو آلية أو وسيلة في الإدراك و البحث،بل بما هو المرجع/الإله الذي يملك حق مصادرة الحقيقة/ المعنى. لذا فإن دريدا يرى أن الميتافيزيقا الغربية قامت على فلسفة الحضور، حضور المعنى و تمثله أمام الذات، هذه الفلسفة التي جعلت من العقل مركزا/مرجعا يحتكم إليه، إضافة إلى أن تاريخ الفكر الغربي بني على مجموعة ثنائيات: عقل/جنون، خير/شر، رجل/امرأة، مركز/هامش...معطيا في ذلك الفوقية /الأفضلية للطرف الأول بوصفه مركزا على حساب الطرف الثاني بوصفه هامشا.

الكلمات المفتاحية: علم الكتابة، الغيرية، الأثر،التفكير، الاختلاف

Abstract

The birth moment of the contemporary Western thought project was not an accelerated born moment but it was the result of an accumulation in the consciousness of criticism, symbolized in its output, in which the metaphysical mind exercises its powers, not by means of a mechanism or means of cognition and research, but by the

reference/ the god who has right to own the truth / meaning. Therefore, Derrida believes that Western metaphysics based on the philosophy of presence, the presence of meaning and represent it in front of the self, this philosophy that made the mind a center / reference to return to it, in addition to the history of Western thought built on a set of binaries: Madness/Conscience, good / evil, man / woman, center / margin ... giving in that meta / preference to the first part as a center at the expense of the other part as a margin.
Keywords: science of writing, heterosexual, impact, thinking, difference

تمهيد

ليس من السهل أن تضع معنى محددا أو دلالة واضحة لمصطلح هلامي يتمرد على الضبط والتحديد، مصطلح غامض يؤكد واضعه أنه ليس مفهوما و لا كلمة ولا يمكن تحويله إلى مفهوم.

إن المصطلحات أو المفاهيم التي تعامل معها فيلسوف الاختلاف الفرنسي جاك دريدا ببراعة لغوية و دهاء معرفي، يكشف عن استراتجيات أو مفاهيم أخرى اعتمد عليها في استراتيجيته التفكيكية، نظرا لتشعباتها وتداخلاتها المعرفية والفكرية، حيث يشكل الاخ(ت)لاف البؤرة الأساس أو حجر الزاوية التي انطلق منها في مقارباته: الحضور والغياب، الانتشار la dissémination الأثر la trace، المأزق التأويلي l'aporie،علم الكتابة de la grammatologie، التمركز العقلي logocentrisme ...مراوغة الدال لمدلوله، لانهائية الدلالة...

من ثمة قام دريدا الناقد لميتافيزيقا الحضور/التمركز بتقويضه لمفاهيم شكلت صرح الفكر الغربي من خلال قراءته لأفلاطون و أرسطو وصولا إلى هايدغر وغادامير مرورا بسوسير وهوسرل ونيتشه هذا الفكر المتمركز حول الصوت/الكلمة الرافض للكتابة لأنها تتكون من علامات مادية منفصلة عن الفكر الذي أنتجها ووظفها والتي غالبا ما تتحدد في غياب المتكلم وبالتالي استحالة الوصول للحقيقة/المعنى،الذي من

المفترض أن يكون منطو في أفكار الكاتب، لذا فإنها تتجاوز تمثيل الكلام إلى تشويهه وتحريفه و هذا ما حاول دريدا التنبيه إليه فاتحا بذلك بابا مختلفا في التفكير.

أولا – *الاختلاف: نحو نمط جديد في التفكير*

هذا المصطلح الذي يتحرك في فضاء اللغة، والذي أطلق عليه دريدا " la différance"حيث يترجم بالاختلاف المرجئ/المرجأ ،المباينة ،الفارق، التأجيل...في حين أن أقرب ترجمة لمصطلح دريدا ما وضعه كاظم جهاد في مقدمة ترجمته لكتاب" الكتابة و الاختلاف"،قد ترجمه بـ"الاخ(ت)لاف".

إن (المصطلح) الذي تعامل معه دريدا ببراعة لغوية و دهاء معرفي،يكشف استراتجيات أخرى اعتمد عليها التفكيك، نظرا لتشعباتها وتداخلاتها المعرفية والفكرية ،حيث يشكل الاخ(ت)لاف البؤرة الأساس أو حجر الزاوية التي انطلق منها في مقارباته: الحضور والغياب، الانتشار la dissémination الأثر la trace،المأزق التأويلي l'aporie،علم الكتابةde la grammatologie، التمركز العقلي logocentrisme ...مراوغة الدال لمدلوله، لانهائية الدلالة...

هكذا فإن دريدا مارس سحره في المساحة التي تتيحها لعبة اللغة، إذ عمد للفعل الفرنسي différer[1] التي تحمل صيغته المتعدية معنى الإرجاء والتأجيل إلى حين وصيغته اللازمة معنى المغايرة والاختلاف. فارتباط الأولى بالزمان والثانية بالمكان سمح لدريدا باشتقاق مصدر دخيل لا عهد للغة الفرنسية به بإبدال ذلك عن طريق إبدال حرف الـ(E) في différence بحرف الـ(A) لتصبح الكلمة différance، هذا الإبدال حمال أوجه, إضافة إلى أن الحرف (A) لا يظهر إلا كتابة حيث تزداد أهمية الكتابة و تقل أهمية الصوت وحضوره و«هكذا فإن حرف الـa في différance ليس مسموعا و يظل صامتا و سريا ومتكتما على ما فيه كالقبر»[2] هذا الاختلاف الموجود بين الحرف(e) و الـ(a) لا يمكن إدراكه لا بالحس و لا بالعقل.

كما أن للحرف (a) بعدا انفجاريا ناريا حسب محمد شوقي الزين؛الذي حاول تبيان علة دريدا في اختياره للحرف(A) فـ« التفكير في الحرف (a) هو تفكير في المحتوى (الهولوكوستي) الذي يؤديه هذا الحرف و يدل في الوقت نفسه على محنة المعنى

الذي يحيل إليه...[و] إدراج حرف لم يغير فقط في بنية المفردة لتغدو شاذة وغريبة عن المعجم المتفق عليه و إنما يؤدي في كينونته دلالة لا يستنفدها الخطاب في رمتها . اللغة تتكلم عبر النار و الانفجار كما قال ذات يوم دريدا »[3]، كما تضفي عليه اللاحقة ance حركة الفعل وسيرورته.

من هنا كيف يرتبط الإرجاء الزماني والاختلاف المكاني في كلمة واحدة؟ أهي إشكالية تضمها اللغة أم الكتابة؟ أم أن الكتابة ما تفتأ تتكلم اللغة،و اللغة لا تنفك عن خط/محو الكتابة؟ .

1- *اللغة والإختلاف:*

إن فكرة الاختلاف استنبطها دريدا من مفهوم سوسير للعلامة وعلاقاتها بعلامات أخرى داخل نظام اللغة .

انطلق سوسير بدئيا من اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول،إضافة إلى تأكيده أن العلامة لا تملك قيمة من ذاتها إلا باختلافها عن باقي العلامات؛فاللغة نظام من الإشارات الاعتباطية.

لقد حاول سوسير أن يبين أن المعنى في اللغة لا ينبني إلا على الاختلاف، فالدال "قال" مثلا يفيد مدلولا بوصفه يختلف عن الدال "جال"،"صال"،"نال"،"مال"،"خال"... وبالتالي فإن المدلول هو نتاج اختلافات الدوال بعضها عن بعض «غير أن سوسير ينبهنا... إلى أن هذه الملاحظة لا تصح إلا إذا نظرنا إلى طرفي الدال والمدلول على نحو منفصل أما إذا وصلنا بين الطرفين في النظر فإننا سنلاحظ نزوعا طبيعيا يبحث به كل مدلول عن دال له يشكل معه وحدة موجبة... فعلى الرغم من أن العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية فإن المتكلمين–في ممارستهم الكلام–يحتاجون إلى الربط بين كل دال معين ومفهوم معين ربطا وثيقا ومن ثم يفترضون أن الدال والمدلول يشكلان معا كلا متحدا ويحتفظان بوحدة معينة في المعنى »[4].

أراد رايموند تاليس التنبيه من خلال قراءته لفكر دريدا في كتابه (not saussure) حيث يقول «إن دريدا يحملنا على أن نصدق بأن العلامات هي نتاج لنظام ما من الاختلافات، إنها مجرد مظهر للاختلاف لكن دعونا من ناحية أخرى ننظر إلى ما

قاله سوسير حقا في المقطع الذي حصل اللبس فيه والمعنون "نظرة شاملة إلى العلامة بأجمعها" كتب سوسير :«ولكن القول بأن كل شيء في اللغة سلبي إنما يصح إذا أخذنا بنظر الإعتبار المدلول والدال بصورة منفصلة أما إذا نظرنا إلى الإشارة بأكملها وجدنا شيئا إيجابيا في الصنف الذي تنتمي إليه»[5].

فتاليس يريد أن يثبت أن دريدا أساء قراءة/فهم سوسير و أن مقولات استراتيجيته أوهام بناها من دون أساس و دليله على هذا قولين أحدهما لسوسير و الآخر لدريدا ،حيث يقول الأول «ورغم أن الدال والمدلول كليهما تفاضلي و سلبي إذا نظرنا إليهما بصورة منفصلة فارتباطهما حقيقة إيجابية، بل هي الحقيقة الإيجابية الوحيدة التي تملكها اللغة لأن الحفاظ على التوازي بين هذين الصنفين من الفروق هو الوظيفة المميزة للنظام اللغوي»[6]. في حين يقول الثاني « إن لعبة الاختلافات تمنع العلامات من أن تصبح في أية لحظة و بأية طريقة عناصر بسيطة أعني حاضرة في نفسها وبنفسها»[7].

فالاختلاف بوصفه المبدأ الأساسي الذي تنبني عليه اللغة و شرط إنتاج الدلالة/ لانهائية الدلالة،يؤثر على العلامة، أي أن سوسير عندما أشار للاختلاف بين الدوال أو بين المدلولات فهم من قبل دريدا على أنه اختلاف بين العلامات نفسها التي هي وحدة الدال و المدلول[8] مما يعني أن العلامة عند سوسير ذات كيان إيجابي تشير إلى معنى ما،في حين هي عند دريدا ذات كيان سلبي تشير إلى لانهائية الدلالة لأنها تستمد وظيفتها من نظام الاختلافات الذي تنتمي إليه.

بناء على ما تقدم، ما طبيعة العلامة اللغوية أهي إيجابية أم سلبية ؟ و ما مفهوم الاختلاف و وظيفته في كلا الحالين؟ و إلى أي مدى يمكن الاتفاق مع فهم دريدا لسوسير أو الاختلاف معه؟.

لإزالة بعض اللبس حاول الباحث عادل عبد الله أن يقدم قراءة عن سلبية العلامة وإيجابيتها،منطلقا بادئ ذي بدء من بعض المبادئ السوسيرية :

إن اعتباطية الإشارة تعني انتفاء العلاقة الداخلية التي تربط الأصوات بالفكرة،وفي الوقت نفسه انتفاء المناسبة التي تجعل من هذا الدال المحدد يعبر عن هذه الفكرة

المحددة، مما يفرض بداهة أن العلاقة سلبت العلامة قيمتها الذاتية،بتعبير آخر فإن العلامة لا تملك أي قيمة ذاتية تعين حضورها رغم أنها حاضرة بالنسبة لنا،آنئذ فإن من يؤسس حضورها آخرها، الذي يختلف عنها و الحامل لذات الصفة في آن . فالاختلاف هو الصفة الوحيدة التي تملكها العلامة. [9]

من ثمة، يمكن القول إن الصفة الإيجابية الوحيدة التي يملكها عنصر ما هي عدم تطابقه مع غيره،وبما أن كل عنصر حاصل لذات الصفة فهي من تؤسس هويته، إذا في الوقت الذي تلتقي العلامة/ الذات/ المعنى بآخرها/ اللامعنى تتجسد حقيقة الاختلاف أو لعبة الاختلافات، التي تمنع العلامات من أن تصبح حاضرة بذاتها ولذاتها، إذا كان ذلك كذلك كيف يمكن لعلامتين لا تملكان قيمة ذاتية أن تحضرا لعلاقة مقارنة بوصفهما عنصرين يمتلك كل منهما ما يميزه عن الآخر؟

للإجابة عن هذا التساؤل يطرح عادل عبد الله فرضيتين[10]:

تقول الأولى، بأن الاختلاف بينهما هو الذي يسبب حضورهما/ حضور المعنى (الاختلاف بين علامتين هو المعنى؛ أي أن الاختلاف سابق على وجود العلامة بوصفها هوية ذات معنى، ذات حضور ما " في البدء كان الاختلاف")، في مقابل هذا يفترض أن يكون للعلامة وجود/هوية/حضور أولي من نوع ما،بحيث لا يحدث الاختلاف من دونه و أن الاختلاف يأتي ليؤكد الهوية التي لا معنى،لا تميز لها إلا من خلال علاقة الاختلاف التي تخوضها مع علامة أخرى، فالاختلاف هنا هو المعنى و هو المسبب له، من محيطه ينطلق و في مجاله يدور و لا يكون للعلامة دور من دونه.

أما الفرضية الثانية:الاختلاف فيها يكون صفة للهوية و ليس سببا لها؛أي أن الاختلاف بين عنصرين هو نشاط الهوية و استقلال حضور كل منهما عن الآخر، فهما اثنان لأنهما هويتان حاضرتان بشكل يختلف فيه كل منهما بمقدار ما عن الآخر.

تأسيسا على هذا فإن الاختلاف يحـ(ت)مل الوجهين، كما يسمح بقراءات أخرى في فهم علاقة العلامات فيما بينها وبتوظيفه في قراءة مختلف النصوص.

إن العلاقات الداخلية للعلامة تشير إلى سوء فهم دريدا للعلامة حينما عدها كيانا سلبيا لا يملك أية قيمة إيجابية في ذاته،والتي بنى عليها قراءاته اللغوية والفلسفية؛ففي الوقت الذي أعطى فيه سوسير العلامة وضعا إيجابيا من خلال تفريقه بين القيمة والدلالة ،فإن دريدا أهمل هذا الجانب واهتم فقط بالجانب السلبي إذ أن لها جانبين/ علاقتين: الأول علاقتها بنفسها أي علاقة الدلالة والإيجاد التي يجتمع خلالها الدال/المدلول وهو الجانب الإيجابي،أما الآخر فهو علاقتها بغيرها من العلامات، علاقة القيمة وهي العلاقة السلبية التفاضلية التي تسبب قيمتها، إلا أن العلامة اللغوية وإن كانت تملك الجانب الإيجابي ،جانب الدلالة(علاقة الدال بالمدلول) فإنها لا تستطيع أن توضح نفسها أو أن تعني أو أن تصبح عنصرا في النظام اللغوي مالم تدخل في علاقة مع عناصر أخرى داخل النظام غير أن هذه العلاقة التالية تفرضها وتسمح بها العلاقة الأولى[11] .

لقد قيل في غير موضع،أن دلالة العلامة اللغوية لا تتحدد إلا انطلاقا من اختلافها عن علامات أخرى، فاللون الأحمر مثلا تتحدد دلالته داخل نسق لغوي لأنه يختلف عن باقي الألوان؛أي أنه ليس اللون الأبيض أو البني... وهي علامات غائبة عن النسق اللغوي،وفي ظل غياب محدد المعنى يفترض دريدا نفي إمكانية حدوث معنى محدد أو نهائي،أما بالنسبة لسوسير فهذا الاختلاف هو ما يكسب اللون الأحمر دلالته«وهكذا بدل من الدلالة نواجه بالاختلاف وبدلا من المعنى نواجه بالإرجاء المستمر له، و مفاهيم دريدا عن الغياب في الحضور و عن الاختلاف بديلا عن التثبيت و عن الإرجاء المستمر للعلامة ليست في مجموعها أكثر ولا أقل من نسف العلاقة بين الدال و المدلول»[12].

إن كان الاختلاف السوسيري يحدث المعنى فالاختلاف الدريدي شرط لحصوله لكن لما يتحقق،حيث يظل في حالة إرجاء وتأجيل وتبقى العلامة إذ ذاك مرتحلة في رحلة لا متناهية في الوقت ذاته لا يمكن إدراج الإخ(ت)لاف ضمن مفهوم العلامة هذا الأخير تشكل داخل نسق /نظام اللغة حيث سعى على الدوام إلى تمثيل الحضور وخضوعه إلى سلطته.

إذا –والحال هذه – فإن دريدا يفكر مع سوسير ضد سوسير، وهو إذ يفعل ذلك ليس سوء فهم –كما قيل عنه– بقدر ما هو زحزحة/خلخلة للميتافيزيقا الغربية المتمركزة حول الصوت /الكلمة/الحضور/التعالي لا إقصاء ونفيا لكن إبرازا لفلسفة الآخر /الغياب /الكتابة/الهامش.

كما سعى أي دريدا إلى إعادة تشكيل نصوص، هذه النصوص حبلى بمختلف صراعات الأنظمة المعرفية المنتجة لنمط معين من التفكير،الذي يشكل فضاء معرفيا يستوعب كل الثقافات؛فالتفكيك «يتجاوز منطوق الخطاب إلى ما يسكت عنه ولا يقوله، إلى ما يستبعده ويتناساه إنه نبش للأصول وتعرية للأسس وفضح للبداهات من هنا يشكل التفكيك إستراتيجية الذين يريدون التحرر من سلطة النصوص وامبريالية المعنى أو دكتاتورية الحقيقة»[13].

فلا غرو من القول،أن الاختلاف يبعث النصوص من جديد فتتعدد إذ ذاك القراءات/التأويلات،وتتداخل النصوص مشكلة نصا جامعا يؤسس لكتابة جديدة، كتابة متشظية/متناثرة ترتحل فيها المعاني. فهو الذي يهب الكتابة كينونتها واللغة نفحاتها والمعنى فائضه من خلال فسحة الإرجاء .

إذا فالثورة اللغوية التي أحدثتها أبحاث سوسير،واستنادا إلى أطروحات هايدغر وغادامير عن اللغة عندما انتقلت من بعدها الصوري المنطقي الإحصائي إلى بعدها الأنطولوجي التأويلي بنى دريدا نظرته إلى اللغة التي تقوم على الاخ(ت)لاف بكل أبعاده الأنطولوجية والتأويلية فـ :

أ– الاختلاف الممكن فهمه هو لغة: أي أن الاختلاف هنا له كينونة لغوية فكل الموجودات بوصفها أسماء ومسميات تتمفصل مع كينونة ما لتدل عليها،أو تعبر عنها في هذا الوجود تتحدث لغة الاختلاف،هذا ما يفسر المقولة الفلسفية النيتشوية – التي عدها الكثيرون نزوعا نحو العدمية والفوضى– "لا يوجد وقائع وإنما فقط تأويلات"،وبالتالي استحالة القبض على المعنى كحقيقة ثابتة وسط عالم /نص التأويل المتعدد والمبعثر .

هذه الرؤية الجديدة لم تعد تحصر اللغة في علاقات إعتباطية أو قواعد نحوية أو بنية محددة من الدالات والمدلولات بل تجاوزتها إلى بعدها الأنطولوجي أي أن لها كينونة خاصة بها بوصفها عالما اختلافيا قادرا على التشكل والتشكيل،فاتحة باب الحوار بكل أبعاده«لذلك تعد اللغة قدرة على الوجود داخل الموجود حيث لا يوجد عالم إلا حيث توجد اللغة»[14] أو على حد قول هايدغر"اللغة بيت الوجود".

هذا الفهم الجديد للغة وفي إطار مفهوم الاختلاف،حاول دريدا التصدي وخلخلة الفكر الميتافيزيقي، هذا الفكر الذي أنجب صورا شتى لسلسلة من التمركزات. حيث أبدع فهما جديدا لماهية اللغة وفقا لنموذج الكتابة مؤسسا لها من خلال مفهوم الاخـ(ت)ـلاف.هذا العمل يعد عملا يعقب الهايدغرية .فـ« هايدغر اعتبر أن الميتافيزيقا تمحو آثار الاختلاف، إذ لا تعترف بالكائن l'être إلا باعتباره حضورا و لكي نتمثل الميتافيزيقا بعمق و على الوجه الأكمل لابد من العودة انطلاقا من سطح الحضور إلى عمق المختلف لنترسم و نقتفي آثاره فكريا»[15] عن طريق فعل الاخـ(ت)ـلاف الذي هو سؤال /تفكير مغاير يخلخل البنيات التي تدعي التماسك/التمركز.

ب– الاختلاف الممكن فهمه هو اللغة: مفاد هذا القول أن اللغة تتبني أساسا على الاختلاف هذا الاختلاف الذي يتشكل في فضائها إذ أنها عبارة عن نسيج من الاشارات المختلفة فيما بينها –كما ذكر آنفا – وبالتالي ينتج عن ذلك غياب المعنى في مدلول معين كونه منتشر في سلسلة من الدالات أي «أي أن هناك فائضا في المعنى لذلك لا يتطابق المعنى مع ذانه أبدا كونه نتاج سيرورة من الانفصال والتمفصل من جهة ومن جهة أخرى كونه شيئا ما مرتقبا ومؤجلا ومنتظرا »[16].

إذا فالاختلاف الديريدي يختلف عن الاختلاف السوسيري هذا الأخير يملك حدودا إيجابية و يتخذ شكلا ظاهراتيا، بيد أن الاختلاف الديريدي اختلاف مؤجل فهو ليس هوية كما أنه ليس اختلافا بين هويتين،و إنما ما يجمعهما معا،ولتوضيح ذلك يستخدم دريدا بعض المفاهيم الإجرائية منها: الفارمكون الذي ليس سما و لا دواء الملحق هو الفائض و الإضافة الضرورية ، الحافة ليس الداخل و ليس الخارج ..في

هذه المساحة يشتغل الاخ(ت)لاف؛في منطقة"الما بين"وهي المنطقة التي تخط فيها كتابة مختلفة/كتابة غيرية.

2/–سؤال الاخ(ت)لاف: نحو كتابة غيرية:

قوض دريدا مختلف التصورات السائدة عن الاختلاف، الكتابة، اللغة، المعنى، الحضور، العقل... متوسلا في ذلك بجملة من الاستراتيجيات لا تقل غموضا عما يريد قراءته أو ما يريد قوله أوالوصول إليه أو نحو كتابة غيرية،حيث أن «الكتابة و الغيرية تتقاسمان هما واحدا»[17]،فالرفض والإقصاء الذي واجهته الكتابة في حوارات أفلاطون بوصفها الخطر الذي يتربص بالحضور/الذاكرة/الصوت –كما ناقشها دريدا– هو ذاته العزل و التهميش«الذي يطال الغيرية بوصفها عنوان الغرابة و النكرة، الآخر هو الذي نخشاه و نتوجس منه لأننا لا نعرفه و يتبدى في صورة الأجنبي أو الغريب»[18].

في قراءته للأسباب التي رفضت من أجلها الكتابة مقارنة بالصوت،وجد دريدا أن هذا الموقف يضم تناقضا واضحا، ففي الوقت الذي يرفض فيه وعي أفلاطون الكتابة فإن لاوعيه يقبلها و يمارسها من خلال ما وجده دريدا في تشبيه أفلاطون الكتابة بـ"الفارماكون" فهو السم والترياق في آن،حيث ورد في "محاورة فيدروس" أن "فيدروس"«يبدأ قائلا: إن الأحرار من الرجال يأبون أن يخلفوا وراءهم كتابات مدونة على شاكلة ما يفعله الكتبة و السفسطائيون الذين لا يعبرون عن أفكارهم بقدر ما ينقلون أفكار الآخرين»[19] .

إذا فقد رُفضت الكتابة لأنها ممارسة سفسطائية،إضافة إلى أنها تعبر عن فكرة الآخر لا عن فكرة الأنا،فهي داء الفلسفة.

لقد دأب أفلاطون على محاربة الكتابة ظاهريا من خلال إعلائه من شأن الصوت الذي يمثل الحوار المباشر/ الذاكرة/ الحقيقة/ المعنى.لكن ما كان مصير حوارات سقراط لو لم يقم السفسطائي الكامن في أفلاطون بكتابتها؟ فـ«سقراط هذا الذي لا يكتب» عبارة قالها نيتشه ووظفها لتقويض ميتافيزيقا الصوت الأفلاطونية،مفاد هذه العبارة «أن سقراط يقاوم الكتابة بالسكوت عن تدوين حواراته من طرف أفلاطون إنه

فعل سفسطائي مضمر في النوايا الحسنة لسقراط،و أفلاطون يقاوم الكتابة بتدوين المتن السقراطي أي بما يستبعده و يعتبره السم القاتل في الدواء الشافي»[20] هذا التناقض والتعارض في موقف أفلاطون وسقراط من الكتابة «ليس غلطة...أو مصادفة تظهر أحيانا في النصوص الفلسفية وإنما هو خاصية بنيوية ينطوي عليها الخطاب الفلسفي نفسه»[21] ولحدى هفوات التفكير الغربي القائم على منطق الثنائيات: الخير/الشر، الواقع/المثال، الروح/الجسد، المعنى/اللامعنى، المركز/الهامش، العقل/الجنون...الذي يعطي دوما الأفضلية والفوقية للطرف الأول لأنه يعزى إلى اللوغوس ليتحول بذلك إلى حضور متعالي و من ثمة تأخذ التمركزية في التعاظم،حيث لا يفهم فيها الطرف الثاني إلا بالرجوع إلى الطرف الأول.

لكن و باستحضار علاقة السبب بالنتيجة كما طرحها نيتشة في "وخزة الدبوس" يتضح أن النقيض يستبطن نقيضه بسجنه و إحالته على الصمت،مثلما ظهر بين العقل/الجنون عند فوكو، الصوت/الكتابة عند دريدا..فمنطق الحقيقة يقتضي إقصاء أو نفي الغيرية الكامنة في الهوية، وقمع الجنون القابع داخل العقل،إذ لولا الطرف الثاني لما عرف الطرف الأول، فالغيرية قابعة داخل رسوبيات النصوص .

في مقابل هذا لا يعني البتة أن دريدا يقوم بعملية القلب انتصارا لطرف على آخر، بقدر ما هي دعوة للاشتغال على هذا الآخر الغائب في طيات الزمن/الذاكرة من دون اسم أو محل.وضرورة البحث عنه في الكتابة بوصفها اخ(ت)لافا الذي هو أصل من دون أصل من دون دلالة ميتافيزيقية لاهوتية فـ"في البدء كان الاختلاف"«هكذا تكتسي الكتابة أدوار الكشف و الحجب: فهي تكشف لأن المكتوب يدوم في الزمان (بعد موت المؤلف) و المكان(أرشيفات، المكتبة..) خلافا للكلام الذي يختفي على التو بمجرد النطق(الوحدة الصوتية) و هي كذلك تحجب لأنها مقبرة الذاكرة أو الغياب الرمزي للكاتب»[22] .

فالاختلاف/الكتابة–والحال هذه–أثر يُطلب تتبعه في حركته وعفويته دون التخلي عن فرادته أو قسره على شيء إذ أن الشيء–حسب صفدي–يستحضر المختلف عنه، وإن لم يكن حاضرا إلا أنه قابل للاستدعاء دون القبض عليه أو تحجيمه لأن

المسألة«ليست تجريبية أو تموضعية ومادية خالصة،ليست المختلفات حجوما تشغل حيزات هندسية وإلا سقطنا في تلك الواقعية الساذجة»[23].

لكن السؤال الذي يطرحه الاختلاف مبدئيا، ما نوع البداية التي ارتكز وتأسس عليها فكر دريدا في التفكيك وإلى أين يتجه وما الشيء الذي يريد الوصول إليه؟. هل هي بداية تتبني على العقل أم على نقد العقل؟.

ليس من الصعب الحصول على إجابة لفظية صريحة "في البدء كان الاختلاف" بوصفه «استراتيجية ممارسة مختلفة تأتي في الوقت الذي تهافتت فيه كل الخطط حسب رأيه[أي دريدا] وقيل كل ما يقال وفعل كل ما يفعل، فالخطاب المطلق أنجز وانتهى سلطانه، وفي هذه اللحظة يراد لنا أن نقول شيئا مختلفا وأن نعمل العمل المختلف، ودريدا ليس يائسا من استراتيجية للتفكيك في حقل كل شيء فيه بات خرابا وأنقاضا بالرغم من كون التفكيك واقعا بين فكي الإحراج الفلسفي (العقلانية والنقد العقلاني للعقلانية) لكن له حيلته ومغامرته»[24].

إذا كان الأمر كذلك، كيف يكون الاختلاف هو البداية الذي يقوض كل بداية وأصل؟ وبالتالي فالإجابة اللفظية الصريحة تضمر مفهوما يستحيل أن يكون إجابة أو قل هو سؤال متجدد، إذ أن طروحات دريدا تنأى عن كل إجابة واضحة ثابة يقينية، فهو يمارس الإجابة السؤال ففي« الوقت الذي يقول فيه أمر الكلام فإنه يدحضه ولو صامتا، كلام الأمر ذاك، كان يقول مثلا:إن هذا هو الحق(وهو ليس الحق تماما) وإن هذا هو الخير(وليس الخير تماما)» [25].

فالاختلاف يكون في تلك المنطقة المستبعدة التي يستحيل ضبطها، المليئة بالأفكار الخفية الصامتة الغير مقولة، التي تقف وراء الأفكار والأوامر المقولة هناك«تقيم مملكة المختلف حتى في لحظة الإقرار بكل المزدوجات الفلسفية المعهودة...فهي ليست قراءة الحاضر لما وراء الماضي وإنما قراءة ما وراء الماضي في الحاضر ذاته»[26].فالاختلاف لا يحمل جوابا لأنه غيرية الكتابة.

هكذا فإن المعنى يختفي بفعل الكتابة حيث تتم عملية إرجائه جراء حركة النص المتواترة،ومن ثمة فالمعنى يحقق ما أطلق عليه محمد شوقي الزين" اللحظة الإليائية"

il ya du sens أي ثمة معنى دون إشارة أو تحديد أو قبض، هذا لايختلف عن الدلالة اللغوية له فالمعنى مثل الكتابة غير قابل للحسم.

ثانيا– علم الكتابة/الغراماتولوجيا: نحو كتابة غيرية

يكاد يجمع الدارسون في مجال النظرية الأدبية المعاصرة أن آراء دريدا وإتقانه للعبة اللغة، التي ولد من خلالها (لا)مفاهيم سعيا منه لتقويض التمركز بمختلف أوجهه، وهي تمتاز بخاصية عدم الانفصال بحيث لا يمكن فهم الواحدة منها دون البقية مع تفرد كل (لا)مفهوم بما يميزه كأنه في ذلك يمارس الحلقة التأويلية لكن ليس آلية في القراءة فحسب بل آلية في إبداع المفاهيم .

لكن قبل الولوج إلى علم الكتابة و محاولة مقاربته مفهوما و إجراء و كشف ما يكتنفه من غموض و إن كانت ميزة كل(لا)مفهوم ديريدي، لابد من الوقوف عند مصطلح التمركز العقلي logoscentrique الذي استخدمه مرة بالتمركز حول العقل و مرة بالتمركز حول الصوت فكثيرا ما يربط بينهما لذا اتجه لنقضهما معا و خلخلة كل الدلالات و بؤر المعاني التي تشكلت حولهما، لأن لفظة logos لفظة يونانية تعني الكلام أو العقل، ثم انزاحت لمفهوم المنطقlogique إضافة إلى أن الفكر الغربي وخطابه الفلسفي لم ينشأ ويتبلور قديما إلا بما أتاحته له اللغة الصوتية و من ثمة أعطت له حق الصدارة و التمركز.

اتجه دريدا باستراتيجيته لتقويض كل يقين مطلق في الفكر الغربي،وثورة على سكونيته الميتافيزيقية، فتقويض التمركز هي أول خطوة لتحرير المعنى من براثين سلطة اللوغوس،شأنه في ذلك شأن كل التحديدات الميتافيزيقية الغير قابلة للفصل عن هيئة اللوغوس«الذي يحط من الكتابة، المنظور إليها باعتبارها وساطة للوساطة و سقوطا في برانية المعنى أو خارجيته»[27]، حيث تخلق و تطور في رحم الشرعية العقلية المنطقية وظل متشبعا بهامن عهد الفلسفة اليونانية،وما المذاهب الفلسفية الأخرى إلا صيغ مختلفة لفكرة واحدة هي فكرة التمركز حول محوري العقل/الصوت،فقد شكلا حولهما نمطا من التفكير يقصي كل ممارسة تحاول تجاوز شروطه وتحطيم قيوده لأنه جعل نفسه و الحقيقة شيئا واحدا وأصبح القياس المنطقي

نموذجا تقاس عليه باقي النماذج الفكرية ،الإبداعية ، هذا التمركز يسميه دريداب" ميتافيزيقا الحضور" التي قامت على تثبيت فكرة الوجود بما هو حضور و من ثمة صاغت له مفاهيم تتحرك في فلكه، تعمل على تطويره و تنميته كالجوهر،الماهية، الوعي...

رغم أن دريدا يؤكد أنه لا يمكن التخلص من هذا التمركز «إلا أن بوسعنا على الأقل أن نتعرف على ظروف الفكر التي يفرضها بالإصغاء إلى ذلك الذي يسعى هذا النظام [أي نظام التمركز] إلى كسبه، ورغم أننا لا نستطيع أن نتخيل "نهاية" الميتافيزيقا أو أن نضع لها حد فإن بوسعنا أن نعمل على انتقادها من الداخل بالتعرف علي النظام الهرمي الذي أقامته و بقلب هذا النظام رأسا على عقب»[28] بهدف خلخلة تلك القواعد الميتافيزيقية و تعرية ركائزها و كشف تناقضاتها التي أنتجت ضمن إطار معين راسمة بذلك مسار الفكر و موجهة له لذا وصف دريدا شأنه في ذلك شأن بارت و فوكو أنه« مناهض مرير لنظم الفكر المتعالية transcendentالتي يقصد منها أن تعطي لأتباعها مواقف هيمنة يطلون منها على من هم دونهم و يحكمون عليهم طبقا لها»[29].

لذا فإن دريدا استحدث نمطا من الكتابة أطلق عليها"la grammatologie" أو "الغراماتولوجيا" توجه لتفكيك النصوص وإظهار مواطن الضعف والتناقض والمغالطات في الفكر الميتافيزيقي.

و منه ما نظرة دريدا للكتابة وكيف تتم ممارستها؟ وما علاقتها بميتافيزيقا الحضور ومختلف التمركزات؟

ثالثا–ميتافيزيقا الحضور(التمركز حول العقل/الصوت)وهامشية الكتابة

يقدم دريدا من خلال هذا المعطى مبدأ شكل صرح المنظومة الفلسفية الغربية–منذ أفلاطون وأرسطو– التي منحت العقل قوة فعالة أكسبته هيمنة لا متناهية،وأصبح نموذجا تقاس في ضوئه كل النماذج الفكرية الأخرى.

لقد سعى دريدا إلى إبراز نمط جديد من التفكير يتجاوز فكر التمركز/الأنا إلى فكر الاختلاف/الآخر، حيث لاحظ أن الميتافيزيقا الغربية أعطت الأفضلية للكلام على

الكتابة،لأنه يستلزم حضور متكلم ومتلق وقت الكلام دون فاصل زماني ومكاني بينهما؛ أي أن هناك حضور مباشر وعلاقة تداول للألفاظ ودلالاتها فـ«سمة المباشرة في فعل الكلام تعطي قوة خاصة في أن المتكلم يعرف ما يعني ويعني ما يقول ويقول ما يعني ويعرف ما يقول وهو قادر فضلا عن ذلك على معرفة فيما إذا كان الفهم تحقق فعلا أم لم يتحقق فصورة الحضور الذاتي المباشر للحقيقة التي يفرض الكلام وجودها في الممارسة الفكرية تتصل مباشرة بالحقيقة التداولية للألفاظ ودلالاتها لحظة النطق في ممارسة حية ومباشرة وآنية »[30] .

هذه الخاصية هي ما جعلت من الكلام مركزا والكتابة هامشا فلم تستأثر باهتمام الفلاسفة لأنه لا يمكنها تداول الحقيقة المباشرة الحية «فالكاتب يضع أفكاره على الورق فاصلا إياها عن نفسه المتضمنة للحقيقة وجاعلا منها شيئا جامدا يمكن أن يقرأ من شخص آخر بعيد لا تربطه به صلة زمانية أو مكانية ولا يربطها [لا يربطهما] سياق مشترك وهذا قد يفتح الباب لمزيد من سوء الفهم بسبب الاحتمالات المترتبة على مسارات التلقي الخاصة بالقراء »[31].

من هنا أعلت الميتافيزيقا الغربية من شأن الكلام واهتمت به بشكل كبير متناسية في الوقت ذاته دور الكتابة.هذا التفضيل سماه دريدا بـ"التمركز حول الصوت" وهو وجه من أوجه التمركز حول العقل،الذي أرجعه دريدا إلى أفلاطون عندما رأى أن الحقيقة هي الحضور المباشر والصريح مع النفس «وأكثر تجليات هذه الفكرة حضورا هو الحوار بين متحدثين يجمعهما زمان ومكان »[32].

فالحوار المباشر هو الأسلوب الأمثل في اعتقاد أفلاطون للتعبير عن الحقيقة،في الوقت الذي يرى فيه أن الكتابة تمارس خطرا على الذاكرة وتدمرها «فأولئك الذين يستخدمونها سوف يصبحون كثيري النسيان يعتمدون على مصدر خارجي لما يفتقدونه في المصادر الداخلية أي أن الكتابة تضعف العقل »[33].

وعلى النقيض من ذلك فإن الكلام ينشطها ويجعلها أكثر اتقادا وحفاظا على المعنى لأنه أي الكلام صادر عن النفس، موطن الحقيقة ومستودعها «وبذلك فهو يحمل طابع الحيوية الذي تتصف به النفس أما الكتابة فهي وسيلة جامدة وميتة »[34]، غير

قادرة على التواصل تشبه الفارمكون (السم والترياق)،حيث «يتعين من هذا الدواء القابل دوما للتحول إلى نقيضه وهو مهدئ كان من الأفضل الاستغناء عنه »[35].

لكن ألا يحمل فعل التذكر فكرة البقاء حبيس الماضي،فلا يعود بالإمكان التحرر من فعل الذاكرة سعيا للتعلم والتجاوز،في مقابل هذا أن تكون الذاكرة محدودة فذلك يعني صعوبة بناء معرفة، معرفة تتكئ على مخزون الذاكرة لتسهل عملية المقاربة،البحث،التنقيب... ما يفرض بداهة أن العلاقة بين الكلام/الكتابة تتجاوز علاقة التابع والمتبوع إلى علاقة حوار/تفاعل فـ«الكتابة ليست مذمومة لأسباب تقنية على وجه الحصر... بل لأسباب أخلاقية ونفسية واجتماعية، إنها مضرة لأنها تشكل ضعفا أساسيا يتمثل بعدم ثبات المعنى إنها تنزع إلى أن تضع موضع الاتهام حضور الحقيقة التي لا يمكن أن تتجلى إلا بواسطة تدخل الكلام وحيد المعنى »[36].

نتيجة لهذا سعى دريدا إلى خلخلة فكرة اقتران الكلام بسلطة المعنى وحضوره، الذي يكون خاضعا لرقابة اللوغوس/العقل «مؤكدا أن الكتابة تكشف عن تغريب المعنى ذلك أن نقش المعنى بواسطة العلامة يهب استقلالا وحرية عن صاحبه الأصلي وهذا يمنحه إمكانات كبيرة في التفسير والتأويل هذا التغريب أو الإبعاد في المعنى يتوضح حينما تستمر العلامة المكتوبة في توكيد أبعادها الدلالية المتجددة في غياب مؤلفها الأصلي »[37].

هذا المفهوم الجديد للكتابة تعدى مفهوم الممارسة التدوينية، فقد حاول من خلاله استنطاق واكتشاف أبعاد التمركز حول الكلام وتبيان جملة من الاقصاءات التي تعرضت لها الكتابة مقارنة بالكلام،إضافة إلى منحها الدور الفاعل في خارطة التعبير الفكري،منطلقا في ذلك من أن السيمات التي تم إقصاء وتهميش الكتابة من أجلها: غياب المتكلم ووعيه، تعدد القراءات ومن ثمة غياب الحقيقة/المعنى عدم الحضور المباشر وبالتالي استحالة الفهم... هي عينها ما يميزها ويمنحها القدرة على الإنفلات من سلطة التمركز، وهي الفكرة التي لم يعهدها الفكر الفلسفي الغربي إلا مع فلاسفة الاختلاف،حيث كانت الكتابة مشتق طفيلي من الكلام «بل التطفل هو من طبيعة الكلام إذ يقوم بتثبيت الدلالات ويجعلها اصطلاحية ومؤسسة »[38]. وبهذا

يفرض الصوت حضوره السلطوي والحقيقة/المعنى المتعالية المثالية التي يعتقد أنه يملكها .

فقد كان الدافع لتجاهل الفلاسفة المقصود للكتابة وخشيتهم منها، أنها تملك القدرة على تدمير/تدنيس الحقيقة/ المعنى التي يرون أنها حقيقة نفسية لا يعبر عنها إلا بالحضور الذاتي والحديث المباشر، ولما كانت الكتابة كذلك تم اختزالها وإقصاؤها إلى مرتبة أدنى من الكلام فالحقيقة. لكن هذا الرفض القاطع للكتابة يضمر داخله قبولا وممارسة لها –كما تمت الإشارة إليه آنفا– من خلال مناقشة دريدا لمفهوم الفارمكون الذي ورد في محاورة فيدروس «فأفلاطون يفكر بالكتابة ويحاول استيعابها والسيطرة عليها على أساس من التقابل بحد ذاته »[39].

تجاوزت استراتيجية التفكيك مفهوم الهدم الثائر على كل ما هو قائم من أجل إقصائه إزالته إلى مفهوم خلخلة،زحزحة كل المعاني التي تصدر عن المطلق /اللوغوس مضفيا عليها قداسة غير قابلة للنقد والتمحيص من هنا غدت إستراتيجية التفكيك نمطا مختلفا من التفكير، البحث،التنقيب« انطلاقا من الطبقة السطحية ... التي تظهر للعيان يتم البحث بواسطة التنقيب الذي لا يفتت ما اكتشفه لأول مرة عن الطبقات التحتية السابقة زمانيا والتي غطيت منذ أمد بعيد بل ظلت دوما مخفية»[40] وبذلك تكون القراءة التفكيكية غوصا في الأعماق، استنطاقا للمسكوت عنه، تفكيرا في اللامفكر فيه.

هذه المغامرة خاضها فلاسفة من قبل اشتهروا برفضهم لمركزية الحضور أمثال نيتشة، هايدغر ...هذا الأخير أطلق عليها "النزعة الأفلاطونية" أو "أنطولوجيا اللاهوت" في مقابل ما أطلق عليه دريدا "ميتافيزيقا الحضور" أو "نزعة مركزية اللوغوس/الكلمة" ليؤكدا بذلك أنها منتشرة في الثقافة الغربية انتشارا واسعا وأن التلوث الحاصل في مختلف المجالات الفكرية بسبب قوة تأثير التعارضات الثنائية التقليدية فيها إلا أن دريدا يعيب على هايدغر حضور النزعة التمركزية في فكره وتتجلى بوضوح في اهتمامه بالكينونة /الوجود أو ما يسميه " الاختلاف الأنطولوجي"* الذي لايزال واقعا في "قبضة الميتافيزيقا"،حيث يقول:«ربما كان فكر هايدغر لا يرج بل

بالعكس يعيد ترسيخ سلطة اللوغوس و حقيقة الوجود كمدلول أول ...مدلول هو بمعنى من المعاني متعاليtranscendantal (مثلما كان يقال في العصر الوسيط إن المتعالي، هذا (الوجود،الواحد، الحق،الطيب)»[41].

لكن لا يعني هذا أنه يرفض فلسفة الحضور من أجل الرفض،إنما يعدها هدفا إستراتيجيا قابل للتقويض/إعادة البناء؛فالحضور لا يمكن تدميره بقدر ما يمكن خلخلته من الداخل بما هو أهم تجل للميتافيزيقا أو أنها تتكلم،تحضر من خلاله.

فالتفكيك لا يتجه للبنيات من الخارج لأنه لن يكون فعالا بقدر ما إذا سكنها من الداخل، وقتئذ يمكن أن يبرز،يظهر تلك التصدعات والتمزقات التي تحاول الميتافيزيقا إخفاءها ورتقها، أوعلى حد تعبير سارة كوفمان«أن الميتافيزيقا كانت دوما متصدعة أو تمت مباشرتها إلى درجة أن كل تاريخها قد ارتكز على إخفاء، انكار وإشفاء هذا الجرح المفتوح دائما و الذي يأخذ اسم الكتابة»[42]، من ثمة فالحضور أشبه ما يكون بالحلم بوصفه إشباعا للرغبة رمزيا أو إشباعا لرغبة لما تتحقق، أي أن ميتافيزيقا الحضور تعوض رغبة الحضور، حضور المعنى و تمثله أمام الذات صفاء الوعي وشفافيته...

لتوضيح فكرة الحضور أكثر يورد جوناثان كلر ثلاثة أمثلة على ذلك:«ففي الكوجيتو الديكارتي" أنا أفكر إذن أنا موجود" تعتبر الأنا خارج مجال الشك لأنها حاضرة لنفسها في فعل التفكير، ولذا فإن مقولة أنا موجود –فيما يقول ديكارت – صحيحة بالضرورة كلما لفظتها أو تصورتها في عقلي، أو خذ مثالا ثانيا هو فكرتنا الشائعة أن اللحظة الراهنة هي ما هو موجود، المستقبل سوف يوجد والماضي وجد،و حقيقة كل منهما تعتمد على حضور الحاضر: المستقبل حضور متوقع و الماضي حضور سابق، و المثال الثالث هو فكرة المعنى (عندما يخاطب بعضنا بعضا) باعتباره أمرا حاضرا من وعي المتكلم يعبر عنه بعد ذلك بواسطة الرموز أو الإشارات : المعنى هو ما هو في ذهن المتكلم في اللحظة الحاسمة»[43] .

بالرغم من أن دريدا يتبنى أفكار أستاذه هايدغر إلا أنه لا ينساق وراءها إذ يرى أن ميتافيزيقا الحضور تحتاج إلى تفسير آخر.لأن كل ما يعد حاضرا و موجودا

يعتمد أساسا في تفسيره و الكشف عن هويته على علاقات واختلافات غير حاضرة،وهي ليست غائبة مطلقا بل حاضرة/غائبة.إذا ففكرة الحضور مشتقة وليست أصلا لأنها نتيجة من نتائج الاختلاف ومظهرا له أي أن «الحضور والحاضر دائما مؤلف من غائبين أحدهما الماضي الذي مضى و انقضى وبدونه لم يكن ثمة شيء له حضور والغائب الآخر هو المستقبل الذي بدوره يؤلف الجزء الآخر من الحاضر الذي لم يحضر بعد وبدونه ليس ثمة كلام عن حاضر»[44]، ما يفرض بداهة ألا وجود لأصل /معنى يحدد ذاته بل يعرف استنادا إلى الآخر / اللامعنى الذي يحدده هذا ما يفسر مقولة دريدا" في البدء كان الاختلاف"ف«الأصل يحيل إلى لاحقه دائما والهوية إلى آخرها الذي يؤسسها نفسها كهوية،بذا يكون الاختلاف في حقيقته إحالة إلى الآخر وإرجاء لتحقيق الهوية في انغلاقها الذاتي»[45].

هذا الحجب الذي تمارسه الكتابة يشبه إلى حد ما التصور في أن أفضل طريقة لمعرفة شخص ما«هي أن ينظر إلى صورته الفتوغرافية بدل النظر إلى وجهه»[46]، من ثمة يستخلص أن «الكتابة تقيم بيننا و بين اللغة حجابا يمنعنا من رؤيتها كما هي، و ذلك أن الكتابة ليست ثوبا عاديا تلبسه اللغة بل قناع/خداع تتنكر فيه»[47] .

بناء على هذا قرأ دريدا سوسير الناقد لميتافيزيقا الحضور/التمركز حول الكلمة من خلال تكسيره لمفهوم اللغة وبنية الكلمة أوالعلامة،وسوسير المتمركز حول الصوت الرافض للكتابة لأنها تتكون من علامات مادية منفصلة عن الفكر الذي أنتجها ووظيفها،والتي غالبا ما تتحدد في غياب المتكلم وبالتالي استحالة الوصول للحقيقة/المعنى،الذي من المفترض أن يكون منطو في أفكار الكاتب ،لذا فإنها تتجاوز تمثيل الكلام إلى تشويهه وتحريفه.

إضافة إلى أن اهتمام سوسير باللغة يؤكد أن أفضل طريقة للتحليل اللغوي هي الأشكال المنطوقة لا المكتوبة هذه الأخيرة التي تقوم بحجب،إخفاء اللغة وغالبا ما تغتصب دور الكلام ف« طغيان الكتابة قوي مدمر يؤدي مثلا إلى أخطاء في التلفظ يمكن وصفها بالمرضية وبأنها إفساد للأشكال المحكية الطبيعية، أو مرض

يصيبها...والكتابة التي يفترض أن تكون وسيلة لخدمة الكلام تهدد بتلويث صفاء النظام الذي تخدمه»[48] .

إن الميتافيزيقا الغربية أسست لعلاقة غير متكافئة بين الكلام والكتابة، علاقة يحكمها العنف والإقصاء ففي الوقت الذي تمنح الكلام / الصوت الشرعية الكاملة في امتلاك الحقيقة /المعنى والتعبير عنه، تقوم بإقصاء وتهميش الكتابة،فهي في نظرها سم ممزوج داخل إناء عسل.مما دفع دريدا إلى إعادة قراءة هذه العلاقة ومنحها ترتيبا مختلفا. فالكتابة موازية للكلام و قد تكون سابقة عليه لتكون في هذه الحال سابقة حتى على اللغة وتكون اللغة نفسها تولدا ينتج عن النص لتدخل معه في حوار،بل إن الكتابة تتجاوز مدى اللغة وتفيض عنها«كما لو كانت الكتابة تنطوي على اللغة بجميع معاني هذا الفعل لا لأن مفردة اللغة كتابة لم تعد تدل على "دال الدال" و إنما لأنه قد بدأ يتضح ...أن تعبير"دال الدال" نفسه قد كف عن الإدلال على الازدواج العرض أو الثانوية المنحطة»[49] .

لكن السؤال الذي يطرح نفسه كيف تفيض الكتابة على اللغة؟ يؤكد دريدا على غرار سوسير أن ما يشكل نسق علامات اللغة هو الاختلاف تنضاف إليه فسحة الارجاء ليشكلا الخ(ت)لاف أو الاختلاف المرجئ الذي تفيض به الكتابة على اللغة.

بناء على هذا فإن دريدا يميز بين نوعين من الكتابة كتابة خطية/ تدوينية «تتكئ على (التمركز المنطقي) ...و هدفها توصيل الكلمة المنطوقة»[50] و كتابة كتابية أو"كتابة ما بعد بنيوية"«و هي ما يؤسس العملية التي تتبع اللغة ...و ليس للكينونة عندئذ إلا أن تتولد من الكتابة و هي حالة الولوج إلى لغة (الاختلاف) والانبثاق من الصمت أو لنقل إنها انفجار السكون[51] .سعيا لمنح الكتابة وظيفة فعالة ومتميزة غير مرتبطة بغائية قبلية .

فالقراءة/الكتابة التفكيكية اختراق للخطاب المقول الذي يتبدى بدئيا مع كل قراءة أولية من خلال علامات النص فيصبح النص والأمر كذلك هدفا للقراءة الاستهلاكية التي تقتله وتسلبه أدبيته التي يمتاز بها إذا فهي تنطلق بداهة من عدم التسليم بوجود أصل ثابت متمركز تسعى وراءه كل القراءات/الكتابات أو إقامة تمركز آخر مقابل

لذاك المقوض، بل قصارى ما تملكه هو اكتشاف الهامش الذي ظل طي الكتمان وحبيس نسق التقابلات الثنائية الميتافيزيقية التقليدية

وفق هذا المعطى فإن استراتيجية التفكيك لا تمنح آليات قرائية جاهزة لاستخراج معنى النص كأنه شيء فيزيقي،مادي يمسك به، أو أنها تقوم بعملية إقصاءه سبيلا لتحقيق اللامعنى أو الوقوع في العدمية و التيه، بقدر ما تسعى لتقويض السلطة التي تقر و تفرض ذاك المعنى جاعلة منه مرجعا/ أصلا ثابتا مقدسا لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه،ليتحول في الظل الكتابة الدريدية إلى شظايا و شذرات في النص–هذا الأخير الذي هو في المحصلة نصوص متداخلة– تاركا آثاره التي هي بمثابة دلالات تدل على وجوده،فالأثر دليل وجود الشيء و غيابه في آن.

تأسيسا على ما سبق فإن القراءة/ الكتابية هي ما تجعل النص ينفتح على عوالم متجددة مستمرة، مستجلية القصدية الخفية الكامنة خلف النص التي تستخدمه كوسيلة للسيطرة(سلطة الذات المتعالية) وأن تتجه إلى ما لا يقوله النص مزحزحة الذات من برجها العاجي /الوهمي/ النرجسي والتي تدعي امتلاك النص ومعناه،ولا يكون ذلك إلا عن طريق الكتابة القرائية"فلا شيء خارج النص" فما النص إلا كتابة و«الكتابة تستدعي قراءة و القراءة تقتضي كتابة من أجل منزلة تخصها و الكتابة هي نصية النص، و الكتابة هي النص متصورا في حدوده»[52].

إن دريدا بمجرد فتحه الكتابة وتحريره للنص تختفي بذلك سلطة المؤلف/الذات الكاتبة، ويولد قارئ تكمن أهميته في أن يعيش نوعا من المكابدة والمعاناة ليستطيع الوقوف عند عتبة من عتبات النص، أوان يتقن قاعدة من قواعد لعبته، بتعبير آخر فإن أقصى ما يمكن فعله،تتبع خيوط نسيجه لا لتمزيقها أو إبدالها بأخرى وإنما لاختراقها/ تجاوزها، الدخول فيما يخفيه هذا النسيج أو إظهار البنية الممزقة فيه، وهو إذ يفعل ذلك يكون قد أضاف للنسيج خيطا جديدا كلما قرأ النص، فما القراءة إلا كتابة جديدة.

من ثمة فاستراتيجية التفكيك عندما تمارس عملها فإنها تنتقل بالمعنى إلى مكان أو أمكنة الاختلاف المنقوشة/الموشومة في النص سلفا لاسترجاع ما أسقط منه تحت

قناع الحقيقة المطلقة«وما أسقط من النص موجود في نص آخر أو إنه ينتج في كتابة أخرى، فإرجاع ما هو غير موجود في النص أو تعويضه يعني قرن نص بنص آخر وتحديد التقاطع القائم بينهما، إن مكان التقاطع هو مفصل النص وتخمه وطرفه وهامشه وحده... فدريدا يريد استرجاع الحقيقة في النصوص عبر استكشاف (تفكيك) قوانينها وممارساتها التكملية »[53]و من هنا يكون للقارئ نصيب في العملية الإبداعية ولابد للقراءة أن تدرك تلك العلاقة بين ما يسيطر عليه الكاتب وبين مالا يسيطر عليه من أنماط اللغة المستخدمة أي إدراك مناطق الغياب .

خاتمة

و في الختام يمكن القول إن دريدا بمجرد فتحه لمفاهيم كانت تشكل تمركزا (الاخـ(ت)ـلاف،علم الكتابة) وتحريره للنص اختفت وقُوضت بذلك سلطة المؤلف/الذات الكاتبة، وُولد قارئ تكمن أهميته في أن يعيش نوعا من المكابدة والمعاناة ليستطيع الوقوف عند عتبة من عتبات النص، أو أن يتقن قاعدة من قواعد لعبته، بتعبير آخر فإن أقصى ما يمكن فعله، تتبع خيوط نسيجه لا لتمزيقها أو إبدالها بأخرى وإنما لاختراقها/ تجاوزها، والدخول فيما يخفيه هذا النسيج أو إظهار البنية الممزقة القلقة فيه، وهو إذ يفعل ذلك يكون قد أضاف للنسيج خيطا جديدا كلما قرأ النص، فما القراءة إلا كتابة جديدة أو اختلاف مرجئ.

فلا غرو من القول، أن الاختلاف يبعث النصوص من جديد فتتعدد إذ ذاك القراءات/التأويلات،وتتداخل النصوص مشكلة نصا جامعا يؤسس لكتابة جديدة كتابة متشظية/متناثرة ترتحل فيها المعاني. فهو الذي يهب الكتابة كينونتها واللغة نفحاتها والمعنى فائضه من خلال فسحة الإرجاء، هذه العملية التي يمارسها دريدا وقارئه غدت ما أطلق عليها "القراءة المغرضة" التي كانت نتيجة الممارسات التأويلية المعاصرة من حجب النص وتقويض أركانه،لكنها في الوقت ذاته وجدت في التفكيك الشرعية الفلسفية والنقدية و رؤية مختلفة في التفكير و الممارسة.

الهوامش

Larousse dictionnaire de français.Maury–Eurrolivres à 1 Manchecourt.Juin.2000.p 123.

2 جاك دريدا ، الاختلاف المرجئ، ضمن كتاب استراتجيات التفكيك،جاك دريدا وبول ديمان مع مناقشات جوناثان كلر وميشال ريان.أزمنة لنشر والتوزيع.الأردن.ط1. 2009.ص.32

3 محمد شوقي الزين، تأويلات وتفكيكات،المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ص237.

4 رامان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، تر. جابر عصفور. دار الفكر للدراسات والتوزيع. ط1. 1991.ص126.

5 .Tallis–not saussure.p211 نقلا عن عادل عبد الله، التفكيكية، إرادة الاختلاف وسلطة العقل، دار الحصاد للنشر والتوزيع. سوريا. ط1. 2005.ص38.

6 عادل عبد الله، التفكيكية،إرادة الاختلاف وسلطة العقل،ص.39

7 المرجع نفسه،الصفحة نفسها.

8 ينظر : المرجع نفسه،الصفحة نفسها.

9 ينظر: المرجع نفسه ،ص43–46

10 ينظر : عادل عبد الله، التفكيكية،إرادة الاختلاف وسلطة العقل،ص48–50.

11 ينطر :عادل عبد الله، التفكيكية.إرادة الاختلاف وسلطة العقل،ص ص51، 52.

12المرجع نفسه،ص68.

13 علي حرب، الممنوع والممتنع ،نقد في الذات المفكرة.المركز الثقافي العربي.الدار البضاء–بيروت.ط4. 2005.ص.22

14 عمر كوش، أقلمة المفاهيم، تحولات المفهوم في ارتحاله.المركز الثقافي العربي.الدر البيضاء– بيروت.ط1. 2002. ص.187

15 عبد العزيز بن عرفة ،جاك دريدا أسلوب و كتابة ، نواقيس المختلف ، كتابات معاصرة .بيروت.م7.ع25.أيلول.1995.ص7.

16 عمر كوش، أقلة المفاهيم ، ص186

17 محمد شوقي الزين، الإزاحة و الاحتمال، الإزاحة والاحتمال، صفائح نقدية في الفلسفة الغربية. منشورات الاختلاف. الدار العربية للعلوم ناشرون. الجزائر–لبنان. ط1. 2008. ص.239

18 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

19 محمد علي الكردي، دراسات في الفكر الفلسفي المعاصر، من الوجودية إلى التفكيكية.دار المعرفة الجامعية.الاسكندرية.دط.1998. ص.165

20 محمد شوقي الزين،المرجع السابق،ص240.

21 جوناثان كالر،التفكيك، ضمن كتاب استراتيجيات التفكيك،ص.100

22 محمد شوقي الزين ، الازاحة و الاحتمال ،ص.24

23 مطاع صفدي، نقد العقل الغربي، الحداثة وما بعد الحداثة. مركز الإنماء القومي. بيروت.دط. 1990.،ص.196

24 المرجع نفسه،الصفحة نفسها.

25 المرجع نفسه،الصفحة نفسها.

26 جاك دريدا، الكتابة والاختلاف تر.كاظم جهاد. دار توبقال للنشر. المغرب.ط1. 1988،ص112.

27 جون ستروك، البنيوية و ما بعدها، من ليفي شتراوس إلى دريدا.تر. محمد عصفور.سلسلة عالم المعرفة. الكويت.1996.ص.207

28 المرجع نفسه،ص.11

29 عبد الله إبراهيم، المطابقة والاختلاف، بحث في نقد المركزيات الثقافية.المؤسسة العربية للدراسات. الأردن.ط1. 2004ص637.

30 المرجع نفسه، ص.637

31 المرجع نفسه، ص.638

32 ولتر أونج ، الشفاهية والكتابية .سلسلة عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون. الكويت 1994. ص.130

33 عبد الله ابراهيم،المرجع السابق. ص643.

34 سارة كوفمان، روجي لابورت، مدخل إلى فلسفة جاك دريدا تفكيك الميتافيزيقا واستحضار الأثر. تر ادريس كثير، عز الدين الخطابي. إفريقيا الشرق. ط1 .1994. ص17.

35 بيير زيما، التفكيكية دراسة نقدية ، تعريب أسامة الحاج . المؤسسة الجامعية . لبنان.ط1. 1996. ص.58

36 عبد الله ابراهيم، المطابقة والاختلاف، ص.638

37 عمر كوش، أقلمة المفاهيم، ص190.

38 عبد الله إبراهيم، المطابقة والاختلاف، ص643.

39 سارة كوفمان ،مدخل إلى فلسفة جاك دريدا،ص13.

* يرى هايدغر أن الفلاسفة من قبل انزلقوا من السؤال عن الوجود/الكينونة إلى الاهتمام بخصائص الموجودات/الكائنات لذا يؤكد على ضرورة التمييز بين الموجود و وجود الموجود، فالموجود يشمل كل الأشياء و الأشخاص أما وجود الموجودات فهو كونها موجودة، ومن ثمة فوجود الأشياء غير الأشياء نفسها.ينظر: صفاء عبد السلام جعفر، الوجود الحقيقي عند مارتن هايدجر .منشأة المعارف.مصر .ط1. 2000. ص 107.

إذا فقد انزلق أو تم نسيان و امتصاص الوجود / الكينونة من طرف الفلاسفة في أثناء بحثهم عن خصائص الموجودات/ الكائنات . و من ثمة انتقل هايدغر من البحث عن الموجود بما هو موجود إلى البحث عن الوجود بما هو وجود.

40 جاك دريدا، الكتابة و الاختلاف،ص.121

41 سارة كوفمان ، مدخل إلى فلسفة جاك دريدا،ص.22

42 جون ستروك، البنيوية و ما بعدها،ص216.

43 مطاع صفدي، نقد العقل الغربي،ص197.

44 جاك دريدا ، الكتابة والاختلاف، مقدمة المترجم،ص.30

45 فرديناند دي سوسير،دروس في الألسنية العامة، تعريب، صالح القرمادي، محمد الشاوس، محمد عجينة، الدار العربية للكتاب،طرابلس، 1995.ص49.

46 المرجع نفسه،ص56.

47 جون ستروك، البنيوية و ما بعدها،ص.222

48 جاك دريدا، الكتابة و الاختلاف،ص104.

49 عبد الله الغذامي، الخطيئة و التكفير، من البنيوية إلى التشريحية.المركز الثقافي العربي.الدار البيضاء– بيروت.ط6. 2006.ص51.

50 المرجع نفسه،الصفحة نفسها

51 هيو سلفرمان، نصيات بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية، تر. حسن ناظم. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء–بيروت. ط1. 2002.ص80.

52 المرجع نفسه،ص .79

53 عزيز عدمان، قراءة النص الأدبي في ضوء فلسفة التفكيك.عالم الفكر. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.الكويت.ع2.م33.أكتوبر –ديسمبر 2004.ص51.